معهد 1934/3/2 بطبرقة	حصّة تأليفيّة علاقة الإنسان بالمكان	الثّالثة شعب علميّة

يأخذ المكان في حياة الإنسان حيّزا هامّا فهو الفضاء الّذي يحتويه وينشأ من هذا الاحتواء مجموعة من العلاقات ونعني بذلك أنّ الإنسان يصنع مجموعة من العلاقات التفاعليّة مع المكان وهي علاقات غير ثابتة بل متغيّرة ومتطوّرة تتراوح بين الحبّ والكره والتعلّق والنّفور فماهي أبرز الأماكن الّتي تحتوي الإنسان و أيّ علاقات ينشئها معها و أيّ أسباب تساهم في تعلّق الإنسان بالمكان أو نفوره منه

أوّل مكان يحتوي الإنسان هو البيت أو المسكن وتكون علاقة الإنسان به عادة إيجابيّة فهو رمز للألفة والمودّة إذ يتآلف الأفراد ويسكنون إلى بعضهم البعض ألم نتغنّى و نحن أطفال ببيوتنا فقلنا

سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر

فاعصفي يا رياح واهطلي يا مطر

نعم يحمينا البيت من القرّ والحرّ ويقينا من مخاطر التّشرّد حتّى أنّ محمود درويش الشّاعر الفلسطينيّ وهو يعود إلى بيته أسف لحال سكّان الخيام الّذين صيّرتهم الحروب لاجئين في خيام لا تتوفّر فيها مقوّمات العيش الكريم فقال :

وأنت تعود الى البيت، بيتك، فكّر بغيرك... لا تنس شعب الخيام

بل إنّ البيت مدرسة أولى فيها يتعلّم الإنسان منذ طفولته قيما ومبادئ يشبّ وينشأ عليها و من دعائم هذا البيت الأبوان اللّذان يسعيان لتربية الأبناء تربية صحيحة قويمة ولا يدّخران جهدا أو مالا ليشبّ الأبناء ناجحين في الحياة

يعيش الإنسان في بيت طفولته أحداثا كثيرا يبقى معظمها راسخا في ذهنه حتّى بعد أن يكبر ويغادر أولئك الّذين شاركوه تلك الأحداث دون رجعة بل تغدو تلك الأحداث ذكريات يتلذّذ الإنسان باسترجاعها في أوقات صفاء وحتّى في أوقات شقاء فهي تذكّره بأولئك الّذين رحلوا وبقي عبير روحهم يفوح في المكان يقول عبد الرّزاق السّومري واصفا بيت طفولته المهجور الّذي عاد إليه يزوره بعد طول غياب:

و أنا أفتح الباب الخشبيّ الذي تكمّدت الوانهُ كنت كمن يمزّق قماط الطفولة الأوّل ، قالوا إنّ الحيطان قد تحتفظ بشيء من أنفاس الأموات و ملامحهم. و ها هو الماضي يتسرّب من كلّ شيء ، من موقد الحطب الذي خمدت أنفاس نيرانه الى الأبد ، من خربشاتٍ أليفةٍ لعينيّ على الجدران ، من ثقوبٍ في السّقف أعرفها . رنا تحت الظّلوع إحساسٌ غريبٌ من الحزن و الحنين ورغبةٌ في البكاء على العمر الّذي تناثر في المنافي"

أما حفيظة قارة بيبان فوصفت عودتها إلى بيت الأسرة بعد رحيل " حبيبة" عنها وصفا دقيقا يكشف عن مشاعر كثيرة تتنازع روحها وهي تلج المكان فرحة باسترجاع ذكريات ثمينة و حنين إلى زمن مضى وأسف على انقضائه :

"على الممشى الترابي الطويل مشيت ...باب الدار مغلق يرمقني. ينتظر المفتاح القديم والشوق المعتق بصعوبة دار المفتاح في القفل مرتين . مع خطواتي علا الصدى

عاد إلى أصابعي خوف الطفولة و ارتباكها وأنا أفتح باب الخزانة المغلقة على مهل...تمايلت ظلال..وانتشر الصدى في خواء الغرفة...وهبت الرائحة ..نسمة من عتيق العطر تندبها دمعة الأسى والانغلاق رجف الشوق في غرفة رحلت أسرتها الوثيرة و طنافسها مع الراحلين . ولكنها ظلت هناك...لا تريد الرحيل .. دوما في انتظاري"

و قد يستحيل البيت مصدر إلهام للإنسان ومنبع إبداع فمنجيب محفوظ الذي نشأ في إحدى حواري القاهرة اعتبر أنّ ذاك المكان ألهمه لكتابة الكثير من أقاصيصه و رواياته فيقول

لقد ألهمني بيتنا القديم إلى الكثير من أعمالي الروائية لقد كانت الحارة في أعمالي واقعية أحياناً وترمز لأشياء كثيرة أحياناً أخرى كانت واقعية حين تشير إلى طفولتي وترمز للوطن مثلما حدث في زقاق المدق وترمز للدنيا بصفة عامة مثلما هو في روايتي (الحرافيش) و(أولاد حارتنا)

غير أنّ علاقة الإنسان ببيته قد لا تكون دائما إيجابيّة فالبيت الّذي غاب عنه أحبابه قد يستحيل سجنا كبيرا وسوطا يجلد الزوج بتباريح الشّوق ومرارة الفقد تقول نجاة نوار في أقصوصتها تحت سماء زرقاء واصفة إحساس البطلة بالقهر نتيجة غياب حبيب اختالته يد الغدر في جبال الشّعانبي

" ...رجل يتقد حياة أخصب زوايا نظرها و ملأ أفق إنتظارها ، يصبح فجاة جزءا من أثاث البيت . سرقت حروب الجبال الصامتة وقع خطوه وقيرت وهاده وشعابه فجر يوم ثقيل ظلّهُ وخلفهُ بحياة اكثر امنا انتظرت عوده ..قاب مساء تنثر أشلاءه الراية القانية ..استقر الإطار المذهب قبالة سريرها اياما تحادثه تعاتبه ..تشكوه وحشة بيت تتناوبها به جرذان الحيرة تقرض صبرها وتفتت جلدها ..و سحالي الغيبة تدس سم الفراغ بايامها كل حين ..لا يجيبها فتثور وتتكش شعرها وكثيرا ما تقدم غدائرها قرابين لمقص الم"

وقد لا تكون علاقة الإنسان ببيته ايجابيّة نتيجة تفكّك أواصر العلاقات بين أفراده قد يستحيل سجنا بغيضا و من أسباب هذا التّفكّك سعي بعض الأطراف للهيمنة على الطّرف الآخر كأن يتسلّط زوج الأم على أبناء زوجته فيعلقهم أو ينعدم التّفاهم بين هذه الأطراف وتدبّ الخلافات تقول صفيّة قم بن عبد الجليل واصفة إحدى هذه العلاقات بين الزّوجة و زوجها :

" ما عاد البيت يطاق وما عادت الحياة به تستقيم بعد أن أغرقته الخصومات بسبب أو بدون سبب و هدّت أركانه اللاّمبالاة والأنانيّة والغلّ في وضع الحدود بينها وبينه... هذا البيت الذي أراداه سكنا وناضلا من أجل إرسائه مددا أضحى سجنا بدون حرّاس، أغلاله من صفيح ساخن تحرق الرّوح وتدمي الجسد... كيف

استحال البيت إلى إقامة جبريّة تضيق بها الصّدور، بل إلى مرستان كئيب يطبق على أنفاس نزلائه، وخاصّة ذيلك الحبيبين الغريبين؟!

إنّ هذا الإحساس بالألفة مع المكان قد يتجاوز البيت ليشمل الحيّ الّذي يسكنه الإنسان ففيه يعقد علاقات مختلفة أساسها التّحابب والتّعاون يقول عزّ الدّين المدني واصفا حياته في حيّه قديما و معبّرا عن حنّه له وحنينه إليه

"لطالما أحببت ذلك الحيّ العربيّ العتيق و ذاك الصّبيّ الّذي كان يلعب في بطاحه الواسعة المغبرّة وفي أزقّته الملتوية الملأنة بالوحل وقشور الثّمر ... و لكم أحببت ذاك الحيّ القديم العامر بأهاليه الصّناجيين ...ولشدّ ما أحببت هذا الحيّ برمضاناته الصّاخب و عيديه الزّاهيين وبمواسمه وحفلاته وبأعراسه ومآتمه... "

إذن فالمكان هنا مغبرّ موحل ولكنّه يستمدّ أهمّيته من العلاقات الطّيبة الّتي تنشأ بين الأفراد فيه

بيدأنّ علاقة الإنسان بالبيت قد لا تكون دائما حميميّة فقد يستحيل عدوّا للإنسان وتتجلّى هذه العلاقة العدائيّة من خلال الإحساس بالضّيق الّذي يطوّق الإنسان إذ عاد إليه وهو ضيق قد تفرضه هندسة المكان في حدّ ذاتها فساكن العمارة المعلّق في شقّة ضيّقة قد يجد في هذا المكان إحساس فضيع بالضّيق ويقول عزّ الدّين المدني واصفا المكان الّذي يسكنه اليوم

" أسكن عمارة في شارع خلفيّ وهي كبيرة عالية كالبرج عامرة كخليّة النّحل لكنّ سكّانها لا تجمع بينهم أيّة ألفة أو رابطة "

وقد يسكن الإنسان منزلا فسيحا جميلا في حيّ راق ولكنّ هذا المكان قد لا يكون المكان المثاليّ لإحساس الإنسان فيه بالوحدة تقول مسعودة أبو بكر

" أسكن منزلا منزويا بحيّ راق يوم انتقلت إليه صفعتني الغربة يقيدني فضاؤه الأخرس و تزعجني تلك البوّابات الحديد الموصدة"

و من الأماكن الّتي تنشئ مع الإنسان علاقات تفاعليّة الموطن فالإنسان يحبّ مسقط رأسه فيحسّ بغربة إذا اضطرّ للإبتعاد عنه ويحنّ إلى العودة إليه يقول رياض جراد على لسان نوّار أحد أبطال أقاصيص حديث الغروب :

كان يحدّثني عن حبيبته "توجان" فيقول: "عندما ولدت، لم تكن هناك قابلة في انتظاري كي تبشّر بوصولي، لعبت في أزقّتها ، وادمت أقدامي أحجارها ترتطم بأصابعي وأنا ألاحق الكرة حافيا ... نبت لحمي من تمرها وخبزها وزيتها، وارتوت عروقي من زلال "شرشارتها" ... قدّت عظامي من صخرها، وركضت في ثنايا "وراس وعرها" ... جبلت روحي على المقاومة بين لسع البرد و وخز الجوع ... ولم أطأطئ رأسي، و لا تنازلت عن بعض كرامتي ... كتبت قصّتي على صخر قريتي، ومن شموخها أرفع

هامتي، و من انصهاري فيها كتبتني وإياها ها هنا... - و يشير إلى قلبه - لكنّي لن أعود إليها إلا نسرا مبسوط الجناحين

والكاتب نفسه تحدّث عن حبّه لقريته قرية المنصورة الّتي كنّاها بـ"أنثى الجبل" وعنون بها أولى مجموعاته القصصيّة و قال عنها

" حبيبتي أنثى ليست كالنّساء، هي الأنثى الجبّارة الممانعة، لا أدري متى همت بها، لكنّي أعلم أنّها سكنت مهجتي منذ بدأت أعي ما حولي. هي الأنثى الّتي قدت من حجر و غضب.. تغدق عليّ من الحبّ ما يرفعها إلى مكانة الأمّهات و تقسو أحيانا كما وطن.. ترفع أبناءها في بوبو العين وتلفظهم كما سقم."

لمّا نزار قبّاني فقد تغزّل بدمشق مدينته غزلا رقيقا بقوله

هذي دمشق.. وهذي الكأس والراح إني أحب... وبعض الحب ذبّاح

أنا الدمشقي.. لو شرّحتم جسدي لسال منه عناقيدٌ.. وتفّاح

هنا جذوري.. هنا قلبي... هنا لغتي فكيف أوضّح؟ هل في العشق إيضاح

غير أنّ هذه المحبّة للموطن قد تنقلب عداوة و هذا التّعلّق بالمكان قد ينقلب نفورا إذا وجد الإنسان صعوبة في العيش فيه كأن ينفر سكّان الرّيف من قراهم و ما ذلك إلاّ لأنّ المكان هناك يصعب العيش فيه وقد وصف الطّيب صالح في دومة ود حامد قرية الدّومة بقوله

" تجيئنا صيفا فتجد عندنا ذباب البقر_ ذباب ضخم كحملان الخريف كما نقول بلهجتنا _ ومن هذا البلاء أهون عليك "اللمّة " ألف مرّة . إنّه يا بنيّ ذباب متمرّس , يحضّ ويلسع ويطنّ ويزنّ , وعنده حبّ عظيم لبني ادم , إذا شمّ رائحتهم لازمهم ملازمة وتجيئنا في وقت ليس صيفا ولا شتاء , فلا تجد شيئا. أنت ولا شكّ يا بنيّ تقرأ الجرائد كلّ يوم , تسمع الإذاعات وتزور السينما مرّة أو مرّتين في الأسبوع . إذا مرضت فمن حقّك أنْ تعالج في المستشفى , و إذا كان لك ابن فمن حقّه أنْ يتعلّم في المدرسة . أنا أعرف يا بنيّ أنّك تكره الطّرقات المظلمة , وتحبّ أنْ ترى ضوء الكهرباء يتوهّج ليلا . و أنت لست شغوفا بالمشي ...يا ليت يا بنيّ , يا ليت ...الطرقات المرصوفة في المدن ,المواصلات الحديثة .. العربات الجميلة المريحة , .. ليس عندنا من كلّ هذا شيء .

بل إنّ الإنسان يعجز عن توفير مورد رزقه في تلك القرى و الأرياف النّائية فإذا جنح الإنسان إلى خدمة الأرض اصطدم بصلابتها وقسوتها و عجز معوله عن الغوص في قلبها يقول نور الدّين اليعقوبي على لسان طفل في أقصوصة نوّار البهيرة :

"...أمّي تقتلع الحلفاء وتصنع منها سلالا تبيعها يوم السوق الأسبوعية. لكن...لكنّها عليلة هذه الأيام."

توقّف عن الكلام دمعت عينه ثمّ واصل الكلام "لقد أدمت الحلفاء يديها وتثالت الثّقوب على أطراف أصابعها..."

وقد يستحيل المكان غولا يقتات من لحم أبنائه يقول شكري مسعي في نصه ماتركه القحط واصفا حياة عمّال المناجم البائسة في إحدى قرى الجنوب " ...خدامة الجبل " الذين قضوا أعمارهم في منجم الفسفاط .. في "الكبّانية" ..هم بعض من كثرين أنفقوا حياتهم بين تجاويف المنجم وقضوا تحت الأنقاض .. فيهم من أكله كهف الوجيعة وفيهم من خرج بعد مدّة العمل يعاني آلام الظهر والبرد وفيهم من ظلّ يقاوم الزيو والفدّة والسرطان حتّى مات ..

ولمّا تستحيل الحياة في الرّيف الفقير تشرئبّ النّفوس إلى مقاطعة المكان و الرّحيل عنه بالنّزوح إلى المدن الكبرى حيث تتوفّر مقوّمات العيش الكريم

غير أنّ المدينة قد تحفل بضروب من المنغّصات الّتي تجعل إقامة الإنسان فيها صعبة كثيرة العقبات يقول جبران خليل جبران متبرّما من حياة المدينة بصخبها و زيفها واكتظاظ شوارعها

ليت شعري أي نفع في اجتماع وزحام وجدال وضجيج واحتجاج وخصام

من ناحية أخرى يبقى الوطن أهمّ مكان في علاقته بالإنسان فكم تغنّى الشّعراء بالوطن وتغزّلوا بجماله فتونس استحالت مع الشّابي غادة حسناء ينتقي من أجل عينيها أروع عبارات الغزل و ينثر تحت قدميها أسمى عبارات الوفاء فيقول

أنا يا تونس الجميلة في لجّ الهوى قد سبحت أي سباحة

شرّعتي خدّك العميق وإنّي قد تذوّقت مرّه وقراحه

بل إنّ علاقة الوله بالوطن قد تتّضح أكثر إذا اضطرّ الإنسان لمغادرة تلك الرّقعة الجغرافيّة فيعيش غربة مقيتة و معاناة شديدة صوّر بدر شاكر السيّاب بعضها في قصيدته غريب على الخليج الّتي قال فيها واصفا شوقه لبلده العراق

شوق يخضّ دمي إليه كأن كل دمي اشتهاء

جوع إليه كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء

شوق الجنين إذا اشرأبّ من الظلام إلى الولادة

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده

إن خان معنى أن يكون فكيف يمكن أن يكون

الشمس أجمل في بلادي من سواها و الظلام

حتى الظلام هناك أجمل فهو يحتضن العراق

ويعتبر محمود درويش أنّ الأنسان لا يساوي شيئا دون وطن فيقول في قصيدته رسالة من المنفى

ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان

ما قيمة الإنسان؟

أما تميم البرغوثي فعندما وقف على أبواب القدس فلم يستطع دخولها إذ ردّه عن الدار قانون الأعادي وسورها تصوّر أنّ القدس تناجيه وتعلمه أنّ مكانته كفلسطيني محفوظة في قلب القدس فنقل لنا قولها كما تصوّره وقال:

... يا أيها الباكي وراء السّور

..لا تبكي عينك أيها المنسيّ من متن الكتاب.. احمق أنت

لا تبكي عينك أيها العربيّ ..واعلم أنه في القدس من في القدس لكن لا أرى في القدس إلا أنت

بل إنّ الإنسان يحبّ وطنه فيستميت في الدّفاع عنه و يسعى لتحريره من العدوّ الغاصب يقول توفيق زياد متوعّدا المحتلّ الصهيوني

هنا .. على صدوركم , باقون كالجدار

وفي حلوقكم

كقطعة الزجاج , كالصبار

وفي عيونكم

زوبعة من نار

هنا .. على صدوركم , باقون كالجدار

نجوع .. نعرى .. نتحدى

تنشد الأشعار

وتملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات

ونملأ السجون كبرياء

في اللّذ , والرملة , والجليل

إنّا هنا باقون

وكلّما تضاعف العنف والاضطهاد كلّما ازداد تشبّث الإنسان بوطنه فمحمود درويش يعتبر أنّ التّجربة السّجنيّة زادته عزيمة وإصرارا على مواجهة العدوّ فيقول في رسالة وجّهها لوطنه

وطني يعلّمني حديد سلاسلي عنف النّسور ورقّة المتقاتل

غير أنّ هذا الوطن قد يضيق كمكان بالإنسان فيلفظه فانتشار الفقر والفوارق الطّبقيّة بين المواطنين يصيّر هذا الوطن عدوّا للإنسان فيسعى للرّحيل عنه بحثا عن المكان الآمن الّذي يتحقّق فيه الأمان بإشباع الحاجات المادّيّة دعك من الحاجات النّفسيّة فتلك تتوارى وتضمحلّ إذا صرخت المعدة و تلوّت الأمعاء جوعا فقد يسهل فراق وطن يمنحك شهادة جامعيّة عديمة الصّلوحيّة لن تجد عملا بها وهي لا تصلح إلاّ أن توضع في إطار وتعلّق في إحدى جدران غرفة الجلوس يقول رياض جراد على لسان مجاهد أحد أبطال روايته الّذي ألقى بنفسه في قوارب الموت هربا من الوطن " جمعت شتاتي... ولملمت أشلاء كل ما حفظته من أغان و قصائد تتغزل بالموطن والوطن... وجعلته داخل صندوق، وأقفلت عليه من الأقفال سبعا، وصرخت بوجه السّماء" سأرحل عنك أيّها الوطن! سأبحث عن مكان فيه حياة، ويحتاج علما للحياة !..."

تلك هي علاقة الإنسان بالمكان بمختلف تمظهراته بيتا .. حيّا..قرية .. مدينة..موطنا.. وطنا ... علاقة تتردّد بين الانفصال والاتّصال وتتراوح بين الحبّ والتّعلّق أحيانا وبين الكره والنّفور أحايين أخرى